البناء القصصي في سورة يوسف عليه السلام

أ.د. عزيزة الصيفي (*)

سورة يوسف هي قصة مكتملة الأركان والعناصر، فالمتأمل في سرديّاتها يتبين تلك الوحدة العضوية التي ميزتها عن باقي القصص القرآني، وحين تقف مبهورًا متعجبًا أمام روعة بيانها وهذا الترابط المتوازن بين أجزائها، واستدعاء آياتها بعضها بعضًا، فهي تمثل لُحمة واحدة عليها الطابع المكي، فقد نزلتْ في تلك الفترة التي سميتْ بعام الهجرة، الحزن حين فقد النبيُّ ﷺ أهم داعمَين له في دعوته، زوجه خديجة وعمه أبا طالب، وقد وردت القصة في القرآن مرة واحدة ولم تتكرر، جاءت متكاملة البناء القصصي المعروف متلاحمة المباني، مترابطة الأحداث المتتابعة في بناء سردي إلهي تاريخي معجز.

وإذا كانت القصة فنًّا إنسانيًّا قديمًا، فيما سُمِّي بالحكايات والأساطير والملاحم، فإن القصة كفَنٍّ له أصوله، وقواعده لم تظهر إلا في العصور المتأخرة، وقد عرف المسلمون القصة من خلال الرواية ثم القرآن الكريم، وقصة يوسف من أبرز القصص القرآنية التي تكاملتْ في عناصرها وبنائها اللغوي كما يتبين فيما يلي: **عناصر القصة:**

أولًا: الموضوع: أو فلنقل «الحدث»، أوضحه النص القرآني بجَلاءٍ وترتيبٍ منطقي للأحداث إذْ يتناول الحياة الإنسانية عندما تمتزج بحياة النبوة، التي تشمل الوجود في مختلف نواحيه الربانية عن طريق الاجتباء الذي كان سببًا في جعل القصة فريدة في موضوعها.

ثانيًا: الشخصيات: إذ تدور الأحداث حول شخصية يوسف -عليه السلام-، والشخصيات الرئيسة التي تشاركه، فإن يوسف هو الكائن الإنساني المختار الذي يتحرك في سياق الأحداث، ووالده، وإخوته، والعزيز وزوجه من أهم الشخصيات، يلي ذلك الشخصيات الثانوية في مثل قوله تعالى: ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ ﴾ (يوسف: ١٠)

(*) أستاذة في كلية الدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر بالقاهرة.

﴿ٱلَّتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾

(يوسف: ٥٠)

ورجلَا السجن ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ﴾

(يوسف: ٣٩)

والشاهد ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾

(يوسف: ٢٦)

وغير ذلك من شخصيات ثانوية مؤثرة في الحدث، ويأتي العامل النفسي من أهم عوامل بناء الشخصية، إذ يعتمد على باعث غريزي هو باعث النجاة بعد التعرض للخطر، بأن يوضع يوسف -عليه السلام- بطل القصة في ضائقة، ومأزق حَرِج أثَّر مرتين على سردية القصة بأحداثها الزمنية المختلفة، إذ نجَّاه الله بإرادته؛ لأنه مُجْتَبًى ومختار، وقد تكاملتْ فيه صفاتُ الخير، ولم تتبدل شخصيته، ولم يتغير رغم ما أحيط به من الأذى، ويرى[١] علماء النفس أن شخصية البطل تَرتَسِم من خلال أبعاد ثلاثة، هذه الأبعاد قد توافرتْ في يوسف -عليه السلام- وهي:

١ - **البعد الجسمي**: فمن خلال القصة ترتسم أوصافُه الخارجية، إذ تتميز بالبنية القوية، والجمال الرباني الخلَّاق، كما أن النسوة ﴿قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّ﴾

(يوسف: ٥٠)

(١) ينظر: من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧م.

عند رؤيته من شدة جماله وبهائه، وما أتاه الله من خصائص خُلقية وخلقية متميزة، جعلت كل من يقترب منه يحبه.

٢ - **البعد الاجتماعي**: يمكن استجلاؤه من خلال ما وهبه الله ليوسف من قدرة على تأويل الأحاديث ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِ﴾

(يوسف: ٦)

ورجاحة عقل مما دفع فرعون إلى أن يجعله على خزائن مصر، فقد كان هو الشخصية المؤثرة على المجتمع الخارجي المحيط به تأثيرًا إيجابيًّا، بروعة منطقه وقوة حجته.

٣ - **البعد النفسي**: وهذا البعد هو حصيلة البعدين السابقين، ويُعنى بتصوير عواطف الشخصية وطباعها، وطريقة تفكيرها وتصرفاتها، وردود أفعالها، إذ تبرز شخصية يوسف النبي الورع حين رأى برهان ربه فعافاه من الوقوع في الرذيلة، وارتكاب الإثم، رغم مَيْله الغريزي نحو امرأة العزيز، ولم يُحمِّل نفسه ضغينة تجاه إخوته حين تركوه في الجب، بل أتى بهم جميعًا في نهاية القصة كما تم من تأويل رؤياه، ولم يتمرد أو يتذمر حين نسِيَه الملك في السجن بضع سنين، فقد كان هادئ النفس مطمئن القلب، إلى غير ذلك من أبعاد نفسية تُلقي بظلالها على شخصيته، ومن الملاحظ

أن شخصية يوسف في القصة قُدِّمَتْ تقديمًا مباشرًا بعد التمهيد في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ﴾ (يوسف: ٤)

فالبداية مؤذنة بعد رد أبيه عليه أنه مستهدف من إخوته.

ثالثًا: البيئة: يُمكن التعرف على البيئة التي عاش فيها يوسف، والمراد البيئة الزمانية والمكانية، أما الزمان، فزمان ظهور الأنبياء، قبل ظهور الرسالات.

أما المكان: فقد عاش يوسف في صغره في بلاد الشام، ثم انتقل إلى مصر وبقي بها إلى الممات، أما عن أحوال الناس في بيئته، فمنهم المؤمن ومنهم المشرك، ثم عاش في بيت العزيز مكرمًا، كابنٍ له، ويتضح من القصة حركة التجارة التي كانت قائمة بين مصر وجيرانها، وتتضح من القصة ملامح البيئة المصرية الزراعية المسالمة الطيبة وسمات شعبها الذي يكدح من أجل توفير الحياة الكريمة، كما تُبرز البيئة معالم الحياة السياسية، إذ كان بمصر ملكًا يحكمها ووزراء يأتمرون بأمره، مما يدل على تقدمها ورقيها، في زمان كانت الأمم فيه متخلفة عن ركبها الحضاري.

الهدف من القصة: جاء ذكرها لغاية وهدف فلم تكن لمجرد الإمتاع الفني كما يصف النقاد بعض أنواع القصص التي يخطها الأدباء.

من الأهداف أخذ العظات والعِبَر للتأسي بها، في حل عديد من المشكلات الإنسانية الحيوية، كمشكلة حسد الإخوة والغضب الذي قد يولِّد الحقد والكره، والتصرف الخاطئ، والمرأة التي لا تضبط نفسها ولا تتحكم في غرائزها، وتسعى في خيانة زوجها، ونجاة يوسف، وترفعه عن الوقوع في الزلل، والتعلق بالأمل حين ظل يعقوب مصرًّا على أن ابنه حي يرزق، وكيفية الاستعداد لاستقبال سنين الجفاف، والخروج من الأزمات الاقتصادية، كل هذه المشكلات وغيرها تضع لها القصة حلولًا، وتستخلص منها العبر.

وقد توافرت في القصة عناصر الصدق الحقيقي، والصدق الفني معًا، فهي القصة التي وردت بوَحْي من الله يمليه جبريل على نبيه محمد ﷺ، والهدف أعظم وأجل من قصص البشر التي تعتمد أساسًا على الإمتاع الفني، فهي قصة واقعية أُلبستْ رداءَ الفصاحة والبلاغة بأسلوب معجز.

أسلوب القصة: جاء متبعًا النسق ذاته الذي شمل القرآن لغة وتركيبًا وسَمْتًا معجزًا. والقصة قد سارت على النهج الصحيح من مقدمة، ووسط (ذروة الحدث) وخاتمة (الحل)، وقد قُدمت في صياغة أسلوبية ربانية تسحر الألباب بما توفر لها من أساليب فنية بالغة الدقة والإعجاز، والقصة لم تعتمد كثيرًا على لغة المجاز والسباحة مع الخيال، بقَدْر اعتمادها على السرد الواقعي للأحداث،

وذلك من روعة النظم القرآني، فالإعجاز ليس بالضرورة أن يكون من خلال المجاز، فإنَّ وَضْع اللفظ في مكانه المناسب والملائم ومراعاة ضرورات الأسلوب خبريًّا وإنشائيًّا من أهم عوامل بناء اللغة في القصة، فاعتماد القصة ظهر في أساليب علم المعاني ودلالات التراكيب، من توالي الجمل وترابطها وإحكام نسجها، الذي منح الكلام إيقاعًا موسيقيًّا نابعًا من تراكيبه، بالإضافة إلى الجرس الموسيقي المتأتي من وجود بعض الأساليب البديعية، واختيار اللفظ المناسب للمعنى على النحو الذي يؤدي دوره في تراكيب الآية الكريمة، وإتقان صنع الآيات المحكمات.

ويتضح منذ البداية كيف جاءت لغة السورة تمثل واقعية الحدث حين يقول عز وجل: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ﴾

(يوسف: ٣)

فالقاص هو الله -سبحانه وتعالى- والقصة أحسن القصص، كذلك يتضح مغزى الحوار حين يقول تعالى على لسان يوسف: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾

(يوسف: ٤)

فالرؤية صادقة، والمجاز في التأويل، ويأتي قول يعقوب لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ﴾ (يوسف: ٥)

ومغزى النهي الخوف عليه من كيدهم وهو يعلمهم، وقول إخوة يوسف: ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾

(يوسف: ٨)

ثم تتوالى الأخبار، في سردية معجزة، في مثل قوله: ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾

(يوسف: ٢٢)

ومثل قوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾

(يوسف: ٢٣)

إلى آخر تلك الأخبار. وقليلًا ما تخرج اللغة عن أصل وضعها في مثل قوله: ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾

(يوسف: ١٨)

وقوله:﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾

(يوسف: ٣١)

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ﴾

(يوسف: ٣٦)

وقوله: ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا ﴾

(يوسف: ٣٦)

ومع ذلك فإن المواضع التي وُظِّفَتْ فيها اللغة على أصل وضعها قوية في نسجها، محكمة في صنعتها الربانية.

يقول الرافعيُّ: «لا جرم إنْ كان القرآن في نظمه وتراكيبه على الأصل... فإذا حَرفتَ ألفاظه عن مواضعها، أو أخرجتَها من أماكنها،

وأزَلْتَها عن روابطها حصلتْ معك ألفاظٌ كغيرها مما يدور على الألسنة، ويجري في الاستعمال، ورأيتها -وهي في الحالين لغة واحدة- كأنما خرجتْ من لغة إلى لغة، لبُعْد ما كانت فيه مما صارت إليه، وهذه الروح لم تُعرف قط في كلامٍ عربيٍّ غيرِ القرآن[2].

يُفهم من ذلك أن اللغة هي اللغة لكن الاختلاف في تراكيب القرآن التي جعلتْها لغةً مختلفةً، كما أن المزية ليست في استعمال اللفظ المجازي في ذاته، بل إن المعنى ازداد إفادةً وتأكيدًا، فعلى سبيل المثال قولُ امرأة العزيز في قوله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ (يوسف: ٥١)

فإن أصل الحصحصة للبعير حين يُسْتَناخ، وتوظيف الفعل للتأكيد على أن الحق قد استقر، فليست المزية في إثبات الحصحصة للحق، إنما كما قال عبد القاهر الجرجاني: في إثبات «المعنى دون المعنى نفسه... فإنه ينبغي للعاقل أن يجعله على ذُكْرٍ منه أبدًا، وأن يعلم أن ليس لنا إذا نحنُ تكلَّمْنا في البلاغة والفصاحة مع معاني الكَلِم المفردة شُغْل، ولا هي منَّا بسبيل، وإنما نعمدُ إلى الأحكام التي تحدثُ بالتأليف والتركيب»[3].

وفي قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ (يوسف: ١٧)

يستشهد الخطابيُّ على أن اللفظ وقع في أفصح وجوه البيان وأحسَنِها، وأبلغ من «افترسه»، فهو يرى أن البلاغة ليست إلا التوفُّق والتهدِّي لِوَضْع الكلمة المناسبة في المكان المناسب»[4].

والحديث يطول وتظل سورة يوسف دليلًا معجزًا لإثبات أن اللغة إذا جاءت على أصل وضعها وأَدَّتْ دورها، تكون قد بلغتْ ذروة السَّنام في جمالها وروعة أدائها، وفي القرآن الكريم هي لغة أعجزت البشر، فالقصة قد وردتْ في عدة صفحات في الكتاب المبين، لو كتبتْ بيد بشر لتم بناؤها وسرد أحداثها في أكثر من ألف صفحة، لكن عظمة النظم القرآني أن يُجمل الأحداث دون أن يشعر القارئ بنقص في المعنى أو سوء فهم، فالقصة رواية تَمَّ ضغطُها وذِكْرُ أَهَمِّ أحداثها دون إخلال، بل على العكس تترك المتلقي يستدعي المواقف والأحداث في مُخيِّلته لتكتمل الصورة بتفاصيلها حتى تلك التي لم تُذكَر، فكلُّ آيةٍ تُمثِّلُ حدثًا يحتاجُ إلى تأوُّل وشَرْح، والله المستعان.

(٢) إعجاز القرآن: ص ٣٣٤، دار الكتاب العربي، بيروت.
(٣) ينظر: دلائل الإعجاز: ص ٥٧، دار المعرفة.
(٤) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ص ٢٦، دار الكتاب العربي.